جميل الايادي

قصة بقلم أديب نحوي

— ١ —

اليوم ، احضروا جميل الايادي ، الى السراي الجديدة ، لعند المستنطق ، قبل انتهاء الدوام ، بساعتين . استجوبه الشرطة ، قبل ذلك في المخفر ، وبسرعة . فسألهم وهو يبكي : هل انه هو الذي خلقها ؟ فقالوا له ، وهم يظنون ، انه قد جن : لا ، لست انت الذي خلقتها . فأجابهم وهو ممنون ، كثيرا ، من هذا الكلام : ان الذنب ليس ذنبه . لانه، ليس هو الذي خلقها ، هكذا ، بل الله .

فختم الشرطة تحقيقهم ، عند ذلك . اخذوا ابهامه الايمن ، فوضعوه فوق علبة الحبر اولا ، ثم جعلوه يبصم في نهاية الورقة . وقالوا له : خلص . ثم ساقوه الى السراي الجديدة لعند المستنطق ، بعد ان وضعوا في يديه معا ، عند الرسغين ، قيدا من الحديد .

ان قنبازه الابيض الحرير الكروزه ، صار من كثرة ، ما هو ملوث بالدم ، كانه مصبوغ في المصبغة ، بالاحمر . حاو ، رغم الخمسين . معتدل الطول . عيناه سوداوان وكبيرتان . وجبينه عريض وابيض . وشارباه ، ليسا مفتولين ، بل قصيرين ومقطوعين باستقامة ، من كل طرف ، من الاعلى الى الاسفل ، فوق شفتين رقيقتين ، وفم صغير ، وذقن لها في منتصفها ، طعجة . وعاري الرأس .

ظل ، قبل ان يقيدوه في المخفر ، يرفع يده ، وهو يحكي ، ويلمس رأسه ، وشعره الشائب الغزير ، مفتشا عن طربوشه ، اكثر من عشر مرات . لم يتذكر اين سقط . لكن ، شعر بكثير من الخجل ، عندما خرج من المخفر . لاول مرة في حياته ، منذ ان اصبح رجلا ، يظهر في ارض حارة القوس ، عاري الرأس ، بدون طربوش . يا عيب الشوم ..!

— ٢ —

اليوم ، احضروا جميل الايادي ، الى السراي الجديدة ، من مخفر حارة القوس العتيقة البعيدة . وكان قد وقع ، منذ الصبح ، في حارة القوس ، مشاجرة . وقع فيها من بيت المنصور ثلاثة ، ومن بيت الفتاح، اربعة . سبعة ماتوا . والجرحى عشرون ، واكثر . يا لطيف . وكان المستنطق الاول مشغولا بنتائج تلك المشاجرة ، فحولته النيابة ، الى المستنطق الثاني ، ومعه ضبط تحقيق الشرطة ، وانه ، فيه ، قد اعترف . أخذه شرطيان ، اول الامر ، الى القبو ، الذي له درج يتصل بغرفة المستنطق ، رأسا . فقعد هناك على الارض ، وكوم نفسه على بعضه البعض ، واسند ظهره الى الحائط . وبكى . وبقي هناك على هذه الحالة ، مقدار ساعة ، لا يتحرك . كانهم اتوا به ، وقالوا له : هذا جدار يوشك ان يسقط ، فاسنده ، حتى لا يقع . فالصق به ظهره ، وسنده ، ولم يتحرك ، لا يمينا ولا شمالا . لا بوجهه ، ولا ، حتى بعينيه .

بكى قليلا وفكر . ثم ، كثيرا كثيرا . وفكر : هل ان أم حسن ، زوجته ، مع اولاده الصغار ، ما زالوا محبوسين في القبو بالبيت . ام انهم كسروا الباب ، الان ، وخرجوا . ام اتى الجيران ، وفتحوا لهم الباب بالمفتاح .؟ ام ماذا جرى ؟

وخطر له : باي وجه اقابلها لما نلتقي . وتقول لي : هكذا يا ابن عمي . كذبت علي ! . جعلتني انزل الى القبو مع الاولاد ، ثم خرجت واغلقت وراءك الباب ، واقفلته بالمفتاح ، من اجل ان تفعل فعلتك ؟

— ٣ —

قبو التوقيف عتمة . وكان فيه اشخاص اخرون ، يمشون من اوله الى اخره . ويقف بعضهم ، فوق رأس جميل الايادي ويسأله :

— ماذا فعلت ؟ فلا يجيب . فينظرون الى النور القليل ، النازل من اعلى النافذة المشبكة بقضبان الحديد ، ثم اليه ، ليتبينوا : من هذا الرجل ؟ فان واحدا ، اتى بعد ذلك ، وجلس القرفصاء جنبه ، وامعن النظر اليه . ونهض وقال : عرفته . هذا جميل الايادي ، حلاق حارة القوس . انا حلقت عنده ، سنة كاملة ، عندما كنت اشتغل حمالا في خان بيت الخميس ، بتلك الحارة .

وجرى حديث بين الموقوفين في القبو ، عند ذلك : هل انه ، اذن ، مشترك ، في تلك المشاجرة .

فقال بعض منهم : لا نعلم .

وحكى آخرون : سمعنا ونحن في النظارة ، هذا اليوم ، صباحا ، عن المشاجرة التي وقعت في حارة القوس ، ووقع فيها — يا لطيف اكثر من عشرين قتيلا . لكن لا نعلم . وان تلك المشاجرة ، ابتدأت بين احمد منصور من طرف ، وصبحي فتاح من طرف اخر . وهما صديقان ، من الروح للروح ، طول حياتهما . وما فهمنا ، لماذا انهما تقاتلا . أبدا ، ما فهمنا ، لماذا تقاتلا ، الواحد مع الثاني . ثم لحق بكل منهما ، الى ارض الحارة ، اخوة كل واحد واولاد عمه . وصار ضرب الرصاص كالمطر بين العائلتين . ما فهمنا .! فهل ان هذا الحلاق ، مشترك في تلك المشاجرة؟

لكن الحمال الذي عرفه . اعترض :

— لا اظن انه مشترك في المشاجرة . هذا حلاق مسكين ، وفقير لا يتشاجر مع احد . من بيته الى دكانه فالجامع . ومن الجامع الى بيته بعد صلاة العشاء ، رأسا . انا اعرفه . فهو لا يقعد في قهوة الحارة .

فايده واحد من الموقوفين ، له شاربان معقوفان ، ويبرمهما . وهو من حارة قاضي العسكر . فانه قال :

— صح يا ابن العم . صح . حلاق وعكيد ؟ لا يمكن . العكيد يقاتل . اما الحلاق ، فيحلق للناس ، ولا يتشاجر مع احد . لا احد عندنا من القبضايات في حلب ، يرضى ان يتقاتل ، مع حلاق ، ولا مع قهواتي ، ولا مع حمامي . فهذا عيب .

— ٤ —

صح .

جميل الايادي حلاق . عنده في سوق حارة القوس ، دكان . فيها كرسي عتيق واحد ومرآة . ومكتوب على باب الدكان : انه صالون زهرة الشهباء . فمن الشهباء العتيقة ، الكائنة عند ابواب البلد البعيدة ، فيه كل شيء . العدة كلها من الامواس والمقصات ، قديمة . وسوداء من كثرة الاستعمال . والمناشف مهترئة ومزفتة . اما من الزهر ، فليس فيه اي

شيء . عتمة مثل عتمة القبو . فلا يعيش هناك الزهر . لا يمكن . وسقف ينخل منه التراب على رؤوس الزبائن. والجدران على طاق الحجر. لكن، من من ابناء الحارة الدراويش ، يحلق في غير صالون زهرة الشهباء ؟ ولا واحد . ابدا . اولاد الوجهاء وحدهم ، من المنصورين والفتاحين ، يحلقون في صالون النعيم ، الكائن في شارع الحارة الرئيسي . اما الدراويش ، فعند جميل الايادي : حلاقة الذقن بربع ليرة ، وقص الشعر بنصفها . ومن يحلق ذهنه ويقص شعره ، مرة واحدة فله تنزيل الى الستين قرشا ، النصف وفوقه فرنكان ، فقط . ومعشر لطيف . فجميل الايادي درويش ، ويحب الدراويش . ودود ويداري الزبائن : ان نعيما يا شباب . وعلى راسي ابو احمد ، او ابو علي . ويعرف كل واحد منهم . ويعرف اسماء آبائهم ، فلا يغلط ويقول لمن اسم ابيه صالح ، على راسي ابو حسن . بل على راسي ابو صالح . ولما يقبض الربع او النصف ، يقبله بشفتيه . ويضعه على رأسه . ويقول ، ان كان الوقت هو الصبح : استفتاح مبارك . وفي غير ذلك من الاوقات : الحمد لله على النعمة . ولا ينسى ان يشكر الزبون : الله يعوض عليك بالاحسن . وعندما يغلق الدكان ، مساء : الحمد لله . الحمد لله . الستر والعافية يا رب . والموت على الايمان . بجاه حبيبك محمد .

قطعة واحدة ، يعلقها ، جميل الايادي في صدر دكانه من الكرتون . وقد اهترأت كثيرا . لكن يمكن قراءتها .

ليست هي ، كما في الدكاكين المجاورة في السوق : ان الدين ممنوع ، والعتب مرفوع ، والرزق على الله . لا . فكثير من ابناء الحارة، يستديئون من عنده ، حلاقة الذقن ، خلال الشتاء عشر مرات ، وقص الشعر ، اربع . ولا يدفعون ، الا ، عندما يشتغلون في اول الربيع ، عند ابتداء موسم البناء ، ونقل الحجر والطين الى أعلى البنايات .

قطعة واحدة ، لدفع الشر والاذى ، عن هذه النعمة ، التي اغرقه الله بها ، بواسطة صالون زهرة الشهباء . مكتوب عليها بـ ((السلس)) : الحسود لا يسود . يقضي كل ايامه سود . فان امه ـ رحمة الله عليها ـ اشارت عليه ، بأن يعلق تلك القطعة ، عندما فتح الدكان . وذهبت فكتبت له ، عند الشيخ حجابا ، علقته بالخيط فوق القطعة . وحكت له همسا : العين لها حق يا ابني . الله يخزيك يا شيطان .

ـ ٥ ـ

لكن الحجاب لم ينفع جميل الايادي ، هذا اليوم . فلا بد ان العين التي لها الحق ، قد أصابته ، أخيرا .

ان جماعة الوجهاء ، من اهل حارة القوس ، ولا بد ان الشيطان ، هو الذي لعب بعقولهم ، اتوا هذا الصباح ، بعد ان انتهت المشاجرة ، بين بيت المنصور وبيت الفتاح، واخبروه ان اغلق دكانك يا جميل الايادي، يا ديوث . ولا تعد لفتحها بعد هذا اليوم ، ابدا .

فلما صار يتوسل اليهم ، وحاول تقبيل اياديهم : ابوس ايديكم ، انا رجل ضعيف ، وعندي سبعة اولاد . جميعهم قطع لحم . فمن اين يأكلون ، اذا انا اغلقت هذه الدكان . لطموه على وجهه . وواحد منهم ، ضرب المرآة بيده ، فانكسرت شقفتين . واخرون . زجاج الباب ، فصار مئة قطعة . فبكى جميل الايادي ، ووقع على ارجلهم ، ليقبلها ، فرفسوه. وهو يبكي ويسالهم ، من خلال دموعه : ـ هل لانني حلاق ؟. ويخبرهم ، وهو عاري الراس ، بعد ان وقع طربوشه على الارض ، من اول لطمة ، وجاث على الركبتين : ان الذنب ليس ذنبه . لانه ليس هو الذي خلقها ، هكذا ، بل الله .

ـ ٦ ـ

اليوم ، احضروا جميل الإيادي الى السراي الجديدة . وقبل انتهاء الدوام بساعة ، نادوا عليه ، من اعلى الدرج ، الذي يوصل الى غرفة المستنطق : ـ يا جميل الايادي . فنهض من مكانه ، وصعد الدرج . ودخل الى غرفة المستنطق . ولم يسلم . بل قعد على الكرسي ، امامه ، صامتا .

فلما سأله : ـ هل ان سامية هي ابنتك ؟

اجاب : ـ نعم انها بنتي وعرق عيني .

فقال له المستنطق : ـ لماذا انك فعلت ذلك ؟

فأجابه ، وهو مطرق الرأس ، الى الارض :

ـ يا بيك . الله يطول عمرك . اذا انا ما رحمتها وانا ابوها ، فمن يرحمها ؟

وصار يبكي من جديد . ويسأل المستنطق :

ـ يا بيك . يا بيك . دخيل الله ، ان تقول لي : هل ان الذنب ذنبي ، لان الله خلقها هكذا ؟ هل انني اذا الذي خلقتها ؟ يا بيك ، دخيل حريمك ان تقول لي ، ام الله ؟ فما هي علاقتي ، انا ، بهذه القضية ؟

فغضب منه المستنطق ، ونهره :

ـ الله خلقها ، هكذا . نعم . فهمنا . لكن ، لماذا فعلت انت ، ذلك ؟ فهل انك يا رجل ، علمت ان التقرير الطبي ، الذي وصلني الان من عند الطبيب الشرعي ، يفيد العكس ، تماما ؟ فلماذا انك ، يا ظالم ، فعلت ذلك ، لماذا ؟

فانفجر جميل الايادي بالبكاء . وقال للمستنطق :

ـ يا بيك . انا كنت اعرف ذلك . ولم اكن بحاجة للطبيب الشرعي، حتى اعرف . انا كنت اعرف ذلك . لكن ، انا ، ابوها . وهي من لحمي ودمي ، فان ، انا ، لم ارحمها واعاونها ، فمن كان يرحمها او يعاونها ، غيري . من ؟ قل لي يا بيك ، أنا دخيل حريمك ، ان تقول لي .

فان المستنطق عند ذلك ، فكر ان جميل الايادي ، قد اتته نوبة من الجنون ، ولا فائدة من استجوابه فورا. فاعطاه سيجارة . وقال له بهدوء، وبشيء من الود :

ـ طيب . طيب . اقعد هناك في القرنة . ودخن هذه السيجارة . واسترح قليلا . وبعد ذلك ، تحكي لي ، وانت مستريح ، كل الحكاية .

ـ ٧ ـ

لم يشاهد الرجال من اهل حارة القوس ، وجه سامية بنت جميل الايادي ، ولا مرة . ابدا . انما تعرف وجهها النسوان . وقد حكين : ان الله لم يخلق بنتا احلى من سامية . ابدا . لم يخلق .

وواحدة من عجائز بيت الايادي ، هي عمة سامية الوحيدة ، الباقية على قيد الحياة . فتلك هي ام سمعو . وزوجها من بيت ذراع . ويستأجر بالضمان بستانا صغيرا ، جنب قرية شيخ سعيد . فهي التي ظلت تحكي

مواقف

سلسلة دراسات رائعة بقلم :

جان بول سارتر

في ست حلقات صدرت كلها

١ ـ الادب الملتزم	٥٠٠	ق.ل
٢ ـ ادباء معاصرون	٤٠٠	ق.ل
٣ ـ جمهورية الصمت	٤٠٠	ق.ل
٤ ـ قضايا الماركسية	٤٠٠	ق.ل
٥ ـ المادية والثورة	٤٠٠	ق.ل
٦ ـ شبح ستالين	٣٥٠	ق.ل

منشورات دار الاداب

للفلاحات من بناء تلك القرية ، منذ سنتين . منذ ان طالت قامة سامية، وصار لها في صدرها نهدان صغيران . وتضرب المثل لما تحكي ، وتبتسم وتتباهى : انه كان في حينا بستان . والله ظل ينبت فيه ، غصبا علينا، بدلا من الزهر ، الف شوكة . فلما رضي علينا ، قمنا ذات يوم حلو من ايام الربيع ، فوجدنا ، ان الله ، قد انبت لنا من بين الشوك ، وردة . فتلك يا بنات هي سامية بنت اخي جميل الايادي . اجمل بنت ولدتها الامهات في حارتنا ، القوس . من عشرين سنة ، واكثر بكثير .

فان سألتها البنات :

ـ يا ام سمعو . احكي لنا عن اوصاف سامية .

وكذلك ان لم تسألها البنات ، تظل خاشعة ، مقدار دقيقة . ثم تصفها ، وكانها تنظر اليها ، وهي مبهورة من جمالها :

ـ طويلة وبيضاء . تقول للقمر ان يغيب ، لتقعد محله الرقيب . عنق مثل عنق الغزال . وشعرها اسود ، وطويل ، يصل الى الركبتين . وانعم من الحرير . آنعم . وفمها صغير .. صغير ، بقدر حبة الفستق الحلبي . ولها في ذقنها طمجة ، مثلما لابيها . وفي خديها غمازتان ، فلما تبتسم ، آه يا الله ، فانها تسحر حتى البنات ، لما تبتسم لهن . فكيف سيجري بالرجال ، كيف ؟ ولها زوج عيون ، سبحان الخالق . ما اكبرهما، وما احلاهما ..!

وتضحك ام سمعو وتقول :

فلا بد ان الله ، لما خلق بنت اخي ، سامية ، كان خالي البال ، حتى خرجت من بين يديه ـ جل جلاله ـ على هذه الصورة .

فاذا خطر لواحدة من الفلاحات ، وهي مبهورة ، بما تصفه لهن ام سمعو ، عن جمال سامية ، ان تقول :

ـ والله . حتى انزل الى البلد ، غدا . واذهب الى حارة القوس، واخطبها لابني علي .

فان ام سمعو ، لا تسكت . تضع يديها على خاصرتيها . وتتعجب اولا ، بعينيها . ثم تحكي بغضب :

ـ لا يا اختي . لا تتورطي . نحن لا نزوجها للضيعة . ابدا . اما كفى ، انني تغربت ، واتعذب بعيدا عن اهلي ..!! لا والله العظيم ، فنحن لا نزوجها ، الا لواحد عنده في البلد ، بيت ملك . وحلو . وله دكان في سوق الجوخ . ويليق بها . وحق النبي محمد ، لا يليق بها في الحقيقة الا واحد ابن نعمة . ولا نقبل مهرها ، انقص من الف ليرة سورية ، وحلق وخاتم وست سنارات ذهب ، وسجادة عجمية ، لا بلدية ، تمد بها ارض البيت ، وطاسة مكاوية ، وبدلتين : واحدة صيفية والثانية شتوية .

ـ ٨ ـ

قبل المشاجرة ، بشهر ، ظل الشباب من اولاد حارة القوس ، الخجولون قليلا ، وهم ، ما زالوا بعد ، صغار السن ، يهمسون باصوات خافتة ، من آلافواه للاذان ، في قهوة الحارة ، وفي المضافات : ان سامية بنت جميل الايادي .. آه .. ويبتسمون ، بشيء من الحياء . لكن ، وبلذة . ويشرحون الامر لبعضهم البعض :

ان احمد منصور ، وصبحي فتاح ، هما اللذان ... آه .. هما بالذات .. نعم ، اللذان يمشيان وراءها .. نعم . هما بالذات . فواحد يقسم ، انه رآى احمد منصور بعينه ، واقفا لها ، في الليل مع اذان العشاء ، على رأس زقاق الجواني ، وينتظرها . فيسالونه : متى ؟ فيقول : لما كانت سامية ، عائدة من الحمام ، الى بيتها ، لوحدها ، وقد سبقت امها ، حاملة البقجة .

واخر يحكي : لا .. لا . ليس احمد منصور . بل هو صاحبه ، صبحي فتاح : فانا سمعت انه يطف على الاسطحة ، حتى يصل الى سطح بيت جميل الايادي بعد نصف الليل . فهي تصعد اليه . وتلتقي به هناك .

لقد اختلف الشباب الصغار السن ، في حارة القوس ، كثيرا ، في ان : هل هو احمد ام صبحي ؟ وتراهنوا على سكرة في مطعم نعيم وكريم، بباب الفرج . انقسموا قسمين ، فان ظهر في الايام المقبلة ، انه احمد ، فيخسر فريق صبحي ويربح فريق احمد . وان ظهر ، انه صبحي ، فلا بد ان الذي يدفع كلفة السكرة ، هو فريق احمد .

اما القبضايات من الشباب ، الذين هم فوق العشرين والثلاثين ، من اصحاب الشوارب المبرومة ، فلم يهمهم ، انه احمد ام صبحي . بل اكدوا علنا : انه يمكن ان يكون الاثنان معا . لم لا ؟ وهذه بنت حلاق . حكوا طويلا : انها بنت حلاق . فلماذا الوشوشة ؟ هل هي بنت عائلة ، حتى ، انها لما تقع ، يحفظ الواحد سرها ؟! ويقول : الله يستر عليها ؟!

لكنهم ، لما وصلوا ، الى انه لا بد اذن ، من اجبار ابيها جميل الايادي ، على ترك حارتنا ، حتى لا تتلوث سمعة هذه الحارة الشريفة ، بسكنه فيها ، صاروا يهمسون : انها مسألة صعبة . فما دام ان اللذين وقعت سامية عندهما ، او عند احدهما ، هما احمد منصور وصبحي فتاح ، فمن يجرؤ على ان يطلب اخراج ابيها من هذه الحارة ؟ من ..؟ من هو الذي روحه رخيصة عليه ، الى هذا الحد .؟ من ؟ حتى يتجاسر على ابداء رآي مخالف ، لرغبات احمد منصور او صبحي فتاح . لا احد. طبعا . لا احد .

وكذلك النسوان .

انهن حكين فيما بينهن ، في الغرف المغلقة ، من منازل حارة القوس ، وحتى لا يسمعهن الرجال : هل صحيح ان سامية ... ؟ وتضع الواحدة منهن ، اصبعين من اصابع كفها ، الابهام والشاهد ، فوق ثوبها، عند الصدر ، وترفعه قليلا عن جسدها ، علامة انها اذا حكت ، فليس الكلام من عندها . بل ان الناس ،هم الذين يقولون ، هكذا ، اما هي ، فلا تضع سامية بنت جميل الايادي ، في رقبتها ..

دار كذلك ، بينهن كلام : ان احمد هو الذي .. وكلام ، بل انه صبحي . وابتسامات لها معنى : لكن صبحي هو الاحلى ، واشقر . بينما ان احمد ، ولو كان حلوا كذلك ، لكنه اسمر . وتساؤل لا ينتهي بينهن ، ابدا :

من احبت سامية ، منهما . يا ترى ؟

وجواب : الله اعلم .

ودعاء الى الله وتضرع : ان لا يبتلي الله بناتهن ، بما ابتلى به سامية بنت الحلاق جميل الايادي ، فالموت احسن .

ـ ٩ ـ

فاليوم ، شهد جميل الايادي ، عند المستنطق بكل الحقيقة . قبل انتهاء الدوام ، بنصف ساعة . حكى جميل الايادي للمستنطق ، بعد ان فهم منه ، انه يشاطره الرأي ، بأن الله هو الذي خلق ابنته سامية ، احلى بنت في حارة القوس ، وانه هو ، لا ذنب له في ذلك . وانه ، ما دام ، هو أباها ، فلا احد يستطيع ان يرحمها اكثر منه .

روى له ، بعد ذلك كل الحكاية . ابتدأ :

ـ والله العظيم يا سيدي . ما باس تمها غير امها .

فوافقه المستنطق على ذلك ، واوضح له مقاطعا ، ان هكذا يقول الطبيب الشرعي في تقريره ، بعد ان فحصها ، بانها عذراء . بنت بيت. ولم يمسها احد . فلماذا انك فعلت ذلك ، يا جميل الايادي ؟

فحكى له جميل الايادي : انها هي التي وافقت .

فلما احتد المستنطق قليلا ، وسأله وهو متعجب :

ـ كيف . كيف .. !

اطرق جميل الايادي برأسه الى الارض ، اولا ، مقدار دقيقة ، ليستعرض المنظر كما وقع . ثم حزن كثيرا . وذهب من عينيه الهم وكل القلق . وعادت فملأتهما الدموع . ولما رفع عينيه ، لم ينظر الى وجه المستنطق ، بل نظر الى الشباك الكبير . ورأى من خلفه السماء . ووجه سامية الحلو . وشعرها الطويل الاسود ، الناعم كالحرير ، يعبث به نسيم الصباح في باحة الدار، وهي تملأ له الابريق من السطل، ليتوضأ. والشمس لم تشرق بعد . والفجر ، ضباب رقيق . والغيوم من فوق :

بنفسجية . والفصل ربيع . وتمر الحنة الى جانب الجب ، قد ازهر . والله مسرور على العرش ، من عباده وقد استفاقوا باكرا للصلاة . ويعشق الواحد ان يسبح بحمده . وان يفكر : ما احلى السفر الى الكعبة الشريفة ليحج ، ويتطهر من كل الذنوب . ويرجع كانه طفل ، وولد في هذه الدنيا من جديد . والى المدينة المنورة بعد ذلك : ليمسك بشباك قبر الرسول ويبكي ، ان شفاعتك يا حبيبي يا محمد فيسمعه الله من عليـاء سمائه ، ويطرب .

لكن ، المستنطق عاد وسأله وهو ينهره :

ـ يا جميل الايادي . لماذا انت ساكت ؟ تكلم . على ماذا ، وافقتك سامية ؟

فأجابه جميل بهدوء . ليس بخوف او مرارة ، بل بحزن :

ـ وافقتني على ان اذبحها .

فصاح المستنطق ، مستغربا :

ـ على ان تذبحها ؟! هل هذا كلام معقول ؟ كيف توافق بنت ، على ان يذبحها ابوها ، كيف ؟

فاخبره جميل الايادي ، وهو يبتسم قليلا :

ـ ان بنت الحلاق ، في حارتنا ، توافق . انا حكيت لها عن المسألة ، عندما عدت من الدكان ، ومعي موسى الحلاقة . اريتها اياه . وحكيت لها . وهي وافقت .

فتضايق المستنطق كثيرا ، وصاح به :

ـ ماذا حكيت لها ؟ تكلم .

فاخبره جميل الايادي ، انه حكى لها ، كل ما جرى معه ، في صالون زهرة الشهباء ، هذا الصباح . وان الوجهاء من اهل الحارة حضروا الى هناك ، وقالوا له : بنتك قحبة . ولولاها ، لما تشاجر احمد منصور مع صبحي فتاح وتطور الامر بعد ذلك ، الى تلك المشاجرة التي سقط فيها سبعة قتلى من الطرفين . وانه اجابهم ، وهو يقبل اياديهم :

ـ يا وجهاء حارتنا ، والله العظيم . بنتي شريفة . نعم . لحق بها احمد منصور ، ليلة الامس وهي راجعة من الحمام . فهي حكت لي عندما عدت الى البيت بعد صلاة العشاء . وحكت لي ، كيف اجابته : امش بشرفك ، انا بنت شريفة . وان صبحي فتاح ، كان يترصد لها اثناء ذلك ، على الطريق ، ايضا ، ولما شاهد صاحبه احمد منصور ، يلحق بها ، سبه بأبيه ، وقال له : اتركها يا احمد ، احسن لك . فانا صاحب غرض عندها ، واياك ان تقف في طريقي . نعم ، هذا الذي جرى مع بنتي . وحكته لي كله . لكن ياوجهاء حارتنا ، بنتي شريفة . ولا ترضى . فلا تسمعوا كلام الناس . والله العظيم . بنتي شريفة .

لكن وجهاء القوس لم يرضوا ان يصدقوه . لطموه على وجهه ، وصاحوا به :

ـ انت تحلف . من انت ؟ شقفة حلاق ديوث . لا شرف عندك ، حتى تحلف به . ومتى كان للحلاق شرف ؟!

وضربوه . وكسروا له المرآة . وباب الزجاج . وهم يصرون : ان بنتك قحـ... فمن كثرة ما داسوا عليه باقدامهم ، بعد ان دفعوه على الارض ، صار يخبرهم ، بانه موافق . نعم . وان بنته قحبة .. نعم ، امركم على راسي . وانا اغلق الدكان ، كما تريدون . طيب ، واخرج من كل الحارة . امركم ، وحتى لا تنوسخ سمعة الحارة ، بوجود ابنتي بين بناتكم . طيب . امركم . وانه لذلك ، احضر معه ، قبل ان يخرج من الدكان ويغلقها ، موسى الحلاقة . وقال لسامية ، لما وصل الى البيت ، ودمه يسيل من رأسه :

ـ يا بنتي . انا احضرت معي من الدكان هذه الموسى . واخرجها من جيبه . واراها اياها :

ـ وانا يا بنتي ، اعلم انك شريفة . نعم ، اعلم . لكن يا سامية . انت تعرفين . ان لك سبعة اخوة اصغر منك . اربع بنات وثلاثة صبيان . والناس في الحارة حكوا عنك ، وصدقوا . لاني ، انا حلاق . واولاد الوجهاء ، لا يرضون ان يتزوجوا من بنت الحلاق ، فاذا كانت حلوة مثلك ، فانهم ، لا بد ، ان يجعلوا منها صاحبة لهم ، ولو غصبا عنها . وبعد ذلك ، لا يمكن ان يتزوج احد من اخواتك ابدا ، عندما يصبحن صبايا . واخوتك الصبيان ، يجب ان لا يمشوا الا ورؤوسهم مطرقة الى الارض من العار . فما رأيك يا سامية ؟ يا بنتي ، واحد من اثنين :

اما ان اذبحك ، واطمئن الى انهم لن يجعلوك صاحبة لهم ، غصبا عنك . واما ان اقتل نفسي . يا الله . قرري . الدكان اغلقتها . وامك: ها هي محبوسة مع اخوتك الصغار في القبو . يا الله قرري يا بنتي .

وان سامية ، لم تبك ، ولم تتوسل . آه يا سيدي ، كم كانت شجاعة . آه . فلو كان لي ، ولد بمثل شجاعتها ، لقاتلت به جميع وجهاء حارة القوس ، وهزمتهم .

فهكذا ، ظل جميل الايادي ، يروي الحكاية للمستنطق ، والجلسة سرية : كيف ان سامية ، وافقت . رفعت اصبعها الى السماء ، وشهدت ، ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله . وتمددت . فرشت شعرها الطويل الاسود الناعم ، على العتبة ، ووضعت فوقه راسها . ثم تمددت . فلما فتحت الموسى ، لم تبك هي ، بل انا الذي بكيت . قالت لي :

ـ لا تزعل يا بابو . انها ارادة الله .

لم اقدر . لم اقدر ان اذبحها ، ورأسها هكذا ، ملقي على بلاط العتبة . فهل هي غنمة ؟ ام انها ابنتي سامية . ومن لحمي ودمي . فقلت لها : تعالي يا سامية . وضعي راسك على ركبتي . فرفعت راسها ، ووضعته على ركبتي ، كما كانت تنام في حضني ، عندما كانت صغيرة . وقالت لي : سلم لي على امي . واغمضت عينيها . فذبحتها .

نعم . هكذا انهى جميل الايادي ، ذلك الحلاق ، في حارة القوس ، سرد الحكاية للمستنطق ، كما وقعت . لكنه ، لم يخبره ، ابدا ، عن ذلك الذي كان قد رآه ، وابنته مذبوحة ونائمة على ركبته . بل احتفظ لنفسه بكل السر .

لم يذكر للمستنطق ، ابدا ، انه بعد ان ذبحها ، لما انحنى ليقبلها . فانه رأى هناك ، على جبينها : الكعبة المشرفة وشباك قبر الرسول ، معا . وانه لذلك ، ظل يحج الى جبينها ، ذلك العريض الابيض الطاهر ، ويحكي للنبي ، من فوق عينيها المغمضتين ، ان شفاعتك يا رسول الله . يا حبيبي . يا محمد .

اديب نحوي

منشورات ((دار الاداب))

تطلب في القاهرة

من

مكتبة مدبولي

٦ ميدان طلعت حرب

(سليمان باشا سابقا)